ولم يرد هيرش على هذا الكتاب ، فأتبعه هيرتزل بآخر قال فيـــه : « اننا سننحط درجات أخرى نحو الحضيض ، ستزداد الشتائم علينـــا ، وكذلك البصاق والسخرية والضرب والسرقة والقتل ، الى أن ننضج للفكرة » .

هذه المرة أجابه هيرش على رسالته ودعـــاه الى زيارته ، ولكنه مات قبل أن تتم المقابلة . فرثاه هيرتزل في مذكراته : « كان هو الوحيد بين اليهود الاغنياء، في استعداده لعمل الكثير للفقراء . ربما لم أعرف كيف أتصرف معه . ان منشوري (الدولة اليهودية) قد صدر منذ أشهر ، وقد وزعت النسخ على الجميع ، الا هو لم أرسل له نسخة . ان تعاونه كان من شأنه أن يساعد دعوتنا على احراز النجاح السريع ، ولذا اشعر بأن دعوتنا قد أصبحت الآن أضعف مما كانت في السابق . كنت دائما أعتقد بأني قادر على كسب هيرش لخطتنا » .

ومما يدلنا على مكانة هيرش بين اليهـــود البارزين هو أن هيرتـــزل لم يتصل بآل روتشيلد ويطلب معونتهم الا بعد موت هيرش . كما يبدو واضحا من مذكرات هيرتزل انه كان يأمل في الحصول على الكثير من هيرش . وهذا يطرح السؤال الرئيسي حول موقف هيرش من الحركة الصهيونية ، ذلك الموقف الذي تتضارب الآراء حوله . فهناك من يدعي بأن البارون كان مدفوعا بدافع انساني صرف عندما عمل على توطين اليهود في الارجنتين ، وان تهجير اليهود من أوربا الشرقية وأعادة توطينهم في العالم الجديد كان بلا أي هدف سياسي . وفي تدليلهم على ذلك ، يشير أصحاب هـــذا الرأي الى رفض هيرش مساعدة اليهود على الاستيطان بفلسطين ، وذلك عكس ادمون ده روتشيلد الذي يرجع اهتمامه بفلسطين كمأوى للمهاجرين اليهود الى عـــام ١٨٨٢ . ويضيف هؤلاء أن هيرتزل نفسه لم يكن اختياره النهائي قد وقع على فلسطين بعد عندما قابل هيرش . فقبل اسبوع من المقابلة الشهيرة ، كان هيرتزل يسجل في مذكراته الحجج المؤيدة والمضادة لاختيار فلسطين . والحجة المؤيـــدة الوحيدة التي وجدهـــا كانت الاسطورة القوية . أي التعلق اليهودي التاريخي بفلسطين كأرض الميعاد لهم . أما الحجج المضادة فكانت : ١) قرب روسيا وأوربا . ٢) عدم وجود فرصة للتوسع . ٣) الطقس الذي لم يعتد اليهود عليه .

ان غرونفالد ، مؤلف سيرة هيرش ، هو أحد معتنقي الرأي القائل بأن هيرتزل لم يكن قد استقر نهائيا على اختيار فلسطين عندما قابل البارون ، ولذا لا يمكن القول بأنه عرض فكرة الاستيطان بفلسطين على هيرش ، وان الاخـــير رفضها . وللتدليل على ذلك ، يستشهد غرونفالد بما ذكره هيرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » الذي صدر بعد المقابلة بستة أشهر عندما كتب : « سنأخذ ما يعطى لنا ، وما يختاره الرأي العام اليهودي » .

أما الكاتب الصهيوني أ. غولدبرغ فقد بين في كتابه « رواد وبناؤون » بأن الفرق بين هيرتزل وهيرش هو الفرق بين رجل الرؤيا والفيلسوف والحالم (أي هيرتزل) وبين الرجل الواقعي العملي الذي لا يفكر بالخطط البعيدة المدى ، وانما بالاصلاح الفوري والعلاج السريع للمشكلة اليهودية . فالمعروف عن هيرش انه كتب مقالا نشرته احدى المجلات ، عين فيه البلدان الواقعة تحت الدرس كأماكن استيطان ، وهي الارجنتين واستراليا وكندا ، بينما لم يأت على ذكر فلسطين مطلقا . ويميل غرونفالد الى الظن بأن هيرش كان واقعا تحت تأثير صديقه المقرب كارل نيتر (١٨٢٦ ــ ١٨٨٢ أحد أثرياء اليهود ، وقد ساهم مع هيرش في تأسيس جمعية الاليانس ، وكذلك أسس المدرسة الزراعية ميكفه اسرائيل بالقرب من يافا) فان نيتر كان قد نشر مقالا عارض فيه اختيار